أ. الشيخ محمود محمدي عراقي
رئيس رابطة الثقافة والعلاقات الاسلامية

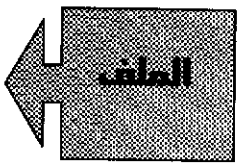

الحداثة [١]

كثيرة هي المصطلحات الغربية التي تناقشنا طويلاً حول الفاظها، دون ان ندخل في محتواها، وندرسها على ضوء الفطرة المشتركة بين جميع البشر. والوقوف السطحي عند هذه المصطلحات يؤدي غالباً الى تعامل انفعالي معها، فإما الرفض التام بحجة المحافظة على الأصالة، وإما التمسك الأعمى بدليل ضرورة مواكبة العصر. وهكذا كنا فريقين في قضايا الحرية والديمقراطية والمجتمع المدني وأمثالها .. ومنها (الحداثة) وكان بالإمكان في هذه جميعاً أن ندرسها دراسة مستوعبة على ضوء تراثنا، ونجعلها رافداً من روافد اغناء مسيرتنا الحضارية كما فعلنا ذلك في عصور الإسلام الذهبية حين انفتح العالم الاسلامي على الثقافات اليونانية والفارسية والهندية. لكن توقف الحركة الحضارية في هذه الأمة خلال القرون الأخيرة جعلنا نقف من الرأي الآخر موقفاً انفعالياً يتسم كما قلت إما بالتحجر او بالذيلية والالتقاط.

صحيح ان الحداثة مصطلح جاءنا من الغرب، وظهر هناك على أثر الاصطدام بين المفاهيم اللاهوتية ومقتضيات المعرفة الحديثة[٢]، لكنه في الواقع كان موجوداً على امتداد كل حركة حضارية في تاريخ البشرية.

فالحركة الحضارية تتطلع دائماً الى الجديد، دون أن تفرط بما حققته في تاريخها الحضاري ودون ان تلغيه، لأنها حركة واحدة مترابطة الخطى متواصلة الحلقات، ولو ألقينا نظرة على تاريخ الفلسفة والطب والفلك والهندسة بل على تاريخ النحو والبلاغة والشعر والكتابة في حضارتنا الاسلامية إبان ازدهارها لرأيناها ترفض التقليد والجمود، وتتجه دائما الى التجديد في الفكر والفن، ولكن بالوقوف على القاعدة الرصينة التي أرساها السلف من العلماء.

إن الحركة الحضارية في التاريخ الاسلامي شقت طريقها وسط أمواج من الفتن والاضطرابات وعمليات القمع التي ظهرت في المجتمع الاسلامي نتيجة انحراف الحكم في كثير من أدواره عن النهج الاسلامي الصحيح وتولي الحكام الجهلة المصلحيين شؤون الأمة، غير أن الطاقة الهائلة التي أودعها الاسلام في هذه الأمة امدّت الحركة الحضارية بزخم كبير جعل الإبداع متواصلاً والانتاج العلمي مستمرا والذوق الفني والأدبي متدفقاً على مر العصور.

وفي إطار هذه الحركة الحضارية كان هناك تمييز واضح بين البدعة والإبداع، وبين (الحديث) الحقيقي و(الحديث) المزيف. البدعة لا تستند الى جذور فهي الكلمة الخبيثة المماثلة للشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، والإبداع ينطلق من فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهو سبحانه بديع السماوات والأرض، والإبداع كلمة طيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت في فطرة الانسان، وفرعها في السماء يباركه الله دائماً لتؤتي ثمارها باستمرار. والفرق بين البدعة والإبداع هو الفرق بين الحديث المزيف والحديث الحقيقي.

وبعد توقف المسيرة الحضارية لأمتنا لأسباب لامجال لذكرها توقفت ايضاً حركة الابداع فيها. من هنا فإننا بدل - الإبداع والانتاج العلمي - وقعنا في جدل عقيم حول ما يردنا من اصطلاحات غربية، هذا يرفض، وهذا يقبل، وكل

ذلك على مستوى الكلام والكتابة دون أن يكون لذلك غالباً ارتباط بحركة الأمة نحو مستقبل أفضل. التحدي الكبير الذي واجه امتنا في العصر الحديث هو انها أمة جامدة راكدة حضارياً وقد انفتحت على عالم الغرب المتحرك في جميع مجالات الحياة.

الفطرة الإنسانية تحب الحركة والتحول والتطوير، وكان خطر الذوبان في الغرب كبيراً لولا تصدي القادة الفكريين المبدئيين الذين حافظوا على تماسك الأجيال بالخطاب الاسلامي المستند الى ايضاح حقائق دين الفطرة والى بيان عظمة ما قدّمه الاسلام الى الحضارة الانسانية جمعاء، والى شد الشعوب الاسلامية بعودة حضارية مستقبلية.

لكنّ هذا الخطر لا يزال قائماً إذا لم تتظافر الجهود على اعادة دورنا الحضاري على الساحة البشرية. لايزال جماعة من أنصار (الحداثة) في الآداب والفنون والتراث يستهينون بماضينا الحضاري ويدعون الى الانقطاع عن الجذور تماماً. وهذه الدعوة تشكل بالدرجة الأولى أكبر خطر على مستقبلنا الحضاري، لأن الأمة لا تستطيع ان تتحرك إذا فقدت جوهر حضارتها وشخصيتها التاريخية.[٣]

لا أزعم أن كل انصار الحداثة وقعوا في فخ الإعراض عن شخصيتنا الحضارية، فأكثر من عرف بالتطرف منهم في هذا المجال له رؤية واضحة في الفرق بين الحديث الحقيقي والحديث الزائف، او بين الحديث والجديد كما يسميه ادونيس.[٤]

وأدونيس يقف عند الفرق بين البدعة والإبداع في مجال الشعر ـ وهو المجال الذي دارت فيه غالباً بحوث الحداثة دون غيرها من مجالات الفكر والفن ـ يقول:

(كل إبداع هو ابداع عالم: فالشاعر الحق هو الذي يقدم لنا شعره عالماً شخصياً خاصاً، لا مجموعة من الانطباعات والتزيينات. إذن كل إبداع تجاوز وتغيير.

حين ندرك هذا لا يعود صعباً أن نميز بين الجديد والمزعوم جديدا، بين الجدة والزي، بين الإبداع والبدعة، البدعة هي الهوس بالآني الحاضر العابر، هي هاجس الطرافة للطرافة، هي التعلق بالجديد لأنه جديد وحسب.

وكثيرا ما يتداخل الإبداع والبدعة. فالزي يرافق الجدة دائماً. لكن البدعة نهر عابر، والإبداع نهر عميق باق. وفي حين تكون البدعة موجة، يكون الإبداع الحركة والعمق. فالبدعة ازياء والإبداع نبوة، والأزياء تعكس تموج الحياة، أما النبوة فتعكس أغوارها).[٥]

ويعرب ادونيس عن قلقه من انجراف الحياة العربية بقوى البدعة والسهولة لأنها لا تطوّر بل تزيد حالة الجمود تعقيدا.[٦]

ولا يذكر ادونيس سبب ضمور الابداع وطغيان البدعة، وهو توقف حركتنا الحضارية منذ قرون، فالإبداع لا يمكن ان يولد إلا في مسيرة حضارة متحركة، وفي غيرها لا نجد إلا التظاهر بالإبداع وهو (الزي) او (البدعة) كما في تعبير أدونيس.

والواقع أن كثرة الحديث عن (الحداثة) و(ما بعد الحداثة) في القصيدة العربية أوحى بأن قضية الحداثة الشعرية كأنها قضية ادبية بحتة بينما هي في الواقع قضية الإنسان في هذه المنطقة من العالم. يقول الدكتور عبدالعزيز المقالح:

(تبدو قضية القصيدة الجديدة أحياناً في الواقع العربي المعاصر وكأنها قضية أدبية بحتة، بينما هي في واقع الأمر قضية الجديد بعامة وقضية الانسان

الجديد على سبيل التخصيص، والانسان الجديد الذي اشير اليه هنا هو ذلك الذي حاول ويحاول بعد مراحل التقطع الحضاري والسقوط أن ينهض من كبوته ويصبح جديداً .. وأن يجعل أبعاد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية تكتسب الوعي بالجديد، وتكون قادرة على التعبير عن هذا العصر وليس عن غيره من العصور).[٧]

ولعل الازمة التي يعانيها الشعر العربي المعاصر هو أنه يريد أن يتحرك لوحده في مجتمع يسوده الركود في جميع مناحيه الإبداعية. إن الشاعر المعاصر بذوقه المرهف وبمشاعره الفطرية المتسامية يرفض أن يبقى في إطار التقليد والاجترار والتكرار، ولكن أنى له أن يرتفع الى المستوى الذي يريد إذا لم يكن ضمن تيار حضاري يشمل جميع مجالات الحياة.

التجربة التاريخية الإيرانية والاسلامية في الحداثة

لاشكَ أنَ وحدة الدائرة الحضارية بين الايرانيين والعرب جعلت معظم التجارب الاجتماعية والثقافية مشتركة بينهما.

ولا يخفى أن الإيرانيين ساهموا في اطار الحضارة الاسلامية بسهم واف في عملية التطوير الحضاري على مختلف الصعد العلمية والأدبية والفنية، ومتى ما ساد جو من الجمود لفترة انكسر هذا الجمود على يد ذوي العقليات المتطورة الحداثية.

حين كانت تظهر شخصية تسيطر بفكرها على الساحة وتؤدي الى انبهار الطلبة والدارسين، والى ابقاء الدراسات ضمن حدود ما قدمته من فكر كبير، يتصدى لها من يكسر هذه السيطرة المؤدية عادة الى الجمود، وغالباً ما يصرح المتصدي بأنه أراد بعمله أن يدفع بعجلة التجديد والتطوير، ولدينا من ذلك

الأمثلة الكثيرة في تراثنا، اكتفي بنموذج واحد هو محمد بن عبدالكريم الشهرستاني صاحب الملل والنحل (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ)، فهو حين رأى فكر ابن سينا قد أدى بالدارسين الى الاكتفاء بالشروح والحواشي على مؤلفات هذا الفيلسوف الكبير تصدى له في كتاب سماه (مصارعة الفلاسفة) يقول في مقدمته:

(وإنما تسبر غرر العقل، وتُبَيَّنْ قيمة الرجل عند مناجزة الأقران ومبارزة الشجعان، والاختبار يظهر خبيئة الأسرار، وبالامتحان يكرم المرء او يهان).

وقد وقع الاتفاق على أن المبرز في علوم الحكمة، وعلامة الدهر في الفلسفة، ابو علي الحسين بن عبدالله بن سينا، فلا يقفوه فيها قاف وإن نقض السواد، ولا يلحقه لاحق وإن ركض الجواد.

وأجمعوا على أن من وقف على مضمون كلامه وعرف مكنون مرامه، فقد فاز بالسهم المعلى، وبلغ المقصد الأقصى. بَلْهَ الاعتراض عليه رداً ورضاً، وتعقب كلامه إبطالاً ونقضاً، فإن ذلك باب ضربت دونه الأسداد وقبضت عليه الحفظة والأرصاد.

فأردت أن اصارعه مصارعة الأبطال، وأنازله منازلة الرجال، فاخترت من كلامه في الهيات (الشفاء) و(النجاة) و(الاشارات) و(التعليقات) أحسنه وأمتنه، وهو ما برهن عليه وحققه وبينه.

وشرطت على نفسي ألا أفاوضه بغير صنعته، ولا أعانده الا على لفظ توافقنا على معناه وحقيقته، فلا أكون متكلماً جدلياً او معانداً سوفسطائياً).[٨]

بهذه الموضوعية والعمق والنهج العلمي كانت عملية التطوير متواصلة، ولكن هذا لا يعني أن كل جديد كان ينظر اليه بأنه أفضل من سابقه بالضرورة، فالمهم أن يكون هناك جديد، وإن تعرض هذا الجديد للنقد، كما

حدث فعلاً بالنسبة لكتاب مصارعة الفلاسفة، إذ ردّ عليه عالم آخر هو نصير الدين الطوسي في كتابه (مصارع المصارع) وانتصرْ فيه لآراء ابن سينا.

وهناك تجربة اخرى عن حقل الفقه والشريعة حين ظهرت الحركة الإخبارية في الفقه لتجمّد عقلية الفقهاء في إطار النصوص ظهرت الحركة الأصولية لترسم للاجتهاد الفقهي منهجاً يفتح الطريق أمام العقل ليمارس دوره في فهم الشريعة على ضوء تطورات الزمان والمكان، وهو المنهج الذي قامت عليه مدرسة أهل بيت رسول الله (ص).

وفي الحقل السلوكي حين ظهرت موجة التصوّف التي تدعو الى العزلة وتقليد المشايخ تقليداً أعمى ثار كبار العرفاء أمثال سعدي وحافظ والمولوي ليرسموا للعرفان طريقاً متحركاً يستهدف تغيير الانسان والحياة، فذموا الصوفية التي تكتفي بالمظاهر واعتبروها رياء ونفاقاً. يقول حافظ الشيرازي:

غلام همت دردي كشان يك رنگم نه آن گروه كه ازرق لباس ودل سيه اند

فالشاعر يظهر ولاءه لأولئك الخالصين المخلصين في معرفة الله الذين هم بلون واحد، ويذم المرتدين القباء الأزرق (المتظاهرين بالزهد) بينما هم يحملون قلباً أسود.

كما دعوا الى تجاوز الواقع نحو حياة متجددة متطورة على الدوام، يقول حافظ الشيرازي ايضاً:

بيا تا گل برافشانيم ومي در ساغر اندازيم

فلك را سقف بشكافيم وطرحي نو در اندازيم

اگر غم لشكر انگيزد كه خون عاشقان ريزد

من وساقي بهم سازيم وبنيادش براندازيم

يدعو الشاعر الى ملء الأجواء بمظاهر جمال الزهور والرياحين والى ملء الكؤوس بالخمرة الإلهية، من اجل هدم السقف الذي ضربه الفلك على رؤوسنا وبناء صرح جديد لحضارتنا.

ويقول: لو أن الهموم جيّشت جيوشها لسفك دم العاشقين فأنا والساقي نشنّ هجوماً عليها وندكّ اساسها. في اشارة الى ان عشاق الحقيقة لا يملون ولا يسأمون.

ودعا المولوي الى رفض التقليد الأعمى واعتبره أكبر خطر يواجه حياة البشرية. يقول:

خلق را تقليد شان برباد داد　　أي دو صد لعنت بر أين تقليد باد

فالبشرية في رأي مولانا جلال الدين قد أضر بها التقليد، ويصب مائتي لعنة على هذا التقليد، بقي هذا السؤال المهم:

متى اصبحت الحداثة خطراً؟

حين تكون المسيرة الحضارية متواصلة متدفقة فإنها تهضم كل جديد وتمثله في جسدها ليتحول الى طاقة تدفع المسيرة نحو كمالها المنشود.

ولكن حين تتوقف تفقد القدرة على التجديد الذاتي، ويصبح كل جديد يأتيها من الخارج وبالاً عليها، لأنها لا تستطيع ان تهضمه وتتمثله، فيفرض عليها بكل خلفياته الفكرية والتاريخية، وهي خلفيات لا تتناسب مع المزيج الحضاري والتاريخي للأمة.

وهكذا وضع الأمة المسلمة منذ أن سقطت أمام الغزو الاستعماري الغربي، استنزفت كل طاقاتها الحركية الحضارية، وأصبحت لا تستطيع ان تستفيد من تجارب الغرب الحضارية، بل تقف منها موقف المنفعل، تثير حولها صخباً وضجة بين مؤيد ومعارض دون ان تستفيد منها شيئاً.

شهد العالم العربي والاسلامي موجة منفعلة تجاه الحداثة التي بشر بها الغرب، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وظهر من تنكر لدينه وثقافته ودعا الى الذوبان في الحضارة الغازية من أمثال: لطفي السيد ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر وأمثالهم من تلاميذ كرومر البريطاني.

ولكن ظهر في الرعيل الذي رباه السيد جمال الدين الأسد آبادي (المعروف بالأفغاني) من استطاع ان يبين خطر هذه الدعوة على وجود الأمة وهويتها.[٩]

وفي ايران برزت نفس الخطورة حين ظهر المتغربون يدعون الى خروج ايران من دائرة الحضارة الاسلامية، وانضمامها الى الدائرة الأوروبية، والى الغاء الخط العربي وحذف المفردات العربية من اللغة الفارسية، والى إزالة كل المظاهر الاسلامية بما في ذلك العمامة لرجال الدين والزيّ الاسلامي للمرأة من أمثال: ملكم خان، ورضاخان، وآخوندزاده[١٠].

ولكن ظهر أمام هؤلاء تيار قادته الحوزة العلمية يؤكد على ضرورة العودة الى حركتنا الحضارية وعلى الهوية الاسلامية لايران والثقافة الايرانية، وعلى خطورة كل دعوة تسيء الى هذه الهوية.

ولعل هذه الأصوات المتغربة المهزومة من دعاة الحداثة هي التي دفعت بمجمع الفقه الاسلامي لاصدار قراره المرقم ١١/٣/٩ بشأن الحداثة ووصفها بأنها (مذهب الحادي).[١١]

تجربة الجمهورية الاسلامية تجاه الحداثة

الجمهورية الاسلامية الايرانية وليدة تيار فكري وعملي آمن بالمشروع الحضاري الاسلامي، ودعا اليه وتحرك على طريق تحقيقه، وفي هذه الحركة الحضارية استطاع ان يستوعب المستجدات في إطار التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وأن يواكب مسيرة الفنون والآداب مع المحافظة الصارمة العلمية والعملية الاجتهادية على القيم والمبادئ الاسلامية.

دعوة الإمام الخميني (رضي الله عنه) قامت على أساس تحقيق كل أماني الشعب وتطلعاته الى الحرية والاستقلال من جهة والى بناء دولة على أسس من القرآن والسنة من جهة اخرى.

وسعى كل تلاميذ الإمام في ايران على هذا الطريق جامعين بين الأصالة والمعاصرة، ومؤكدين على ضرورة أن يكون الإسلاميون في طليعة المسيرة الأدبية والفنية والفكرية في البلاد.

بل إن حديث الإمام الخميني وتوجيهاته بشأن (المرأة) قد سحب البساط من تحت أرجل كل المنادين بتحرير المرأة، وقدّم لمشاركة المرأة في الشؤون الاجتماعية والسياسية مشروعاً أسكت فيه كل دعاة الحداثة الغربية في حقل الشؤون النسوية.

وتلاميذه من أمثال العلامة الشهيد مطهري وآية الله الخامنئي وآية الله الشهيد بهشتي والدكتور باهنر والدكتور مفتح دخلوا الساحات الحساسة قبل الثورة وكانوا طليعيين في الجامعات وفي نقابات الأطباء والمهندسين وتجمعات الطلبة والعمال.

لقد حاول اليساريون آن ذاك أن يجدوا لهم موضع قدم في ايران مستفيدين من عداء الشعب الايراني لأميركا. لكن الإمام جعل من أميركا الشيطان الأكبر، ووجه كل القوى لمحاربته وخاصة في المجال السياسي والثقافي، مما فوّت الفرصة على المزايدين.

وبعد انتصار الثورة أقيم النظام النيابي المبتني على الشورى الاسلامية، مما جعل ايران في مقدمة الدول التي تستند الى إرادة الجماهير.

وأقر الدستور الايراني الذي يعد أكبر صياغة قانونية اسلامية للمجتمع الاسلامي الذي يحافظ على كرامة الانسان وعزته ويوفر له جميع سبل تكامله ورشده.

وأقر المشروع الثقافي من قبل المجلس الاعلى للثورة الثقافية، وفيه منهج تفصيلي لتطوير الفنون والآداب والعلوم والدراسات والبحوث، من أجل إثراء المسيرة الحضارية للدولة الاسلامية.

وأمام هذه التجربة الرائدة تحركت القوى المعادية التي لا تسعدها العودة الحضارية لهذه الأمة بمحاولات تخريبية ثقافية هائلة باسم (العولمة) تارة وباسم (الحداثة) تارة أخرى، وباسم (القرية الكبيرة) وغيرها من الأسماء، وراح المنظرون الاستراتيجيون يرسمون خطط المواجهة في اطار ما أسموه (صراع الحضارات).

كل ذلك من أجل مواجهة ظاهرة بدأت تغطي كل العالم الاسلامي في العقود الأخيرة، وهي ظاهرة الصحوة الاسلامية والنهوض من أجل استعادة الدور الحضاري لهذه الأمة.

أخلص من كلامي الى النتائج التالية:

أولاً: إن المفكرين في عالمنا الاسلامي يجب أن يتعاملوا مع الحداثة بأنها ظاهرة ايجابية فطرية، مع التنبيه على الفرق بين الإبداع والبدعة.

ثانياً: يجب أن ينصب اهتمام كل المفكرين المبدئيين على استعادة دورنا الحضاري على الساحة، وعلى تحريك المشروع الحضاري لهذه الأمة، وبدونه فإن كل مظاهر حياتنا ستبقى سطحية لا تتجاوز القشور، أو الأزياء كما قال بعضهم.

ثالثاً: إن الطروحات الفكرية التي نقدمها لامتنا وخاصة لجيل الشباب يجب أن تتضمن رؤية مستقبلية تشد الأمة تجاهها وأن نبتعد عن الاكتفاء باجترار الماضي وعن التقليد الأعمى.

رابعاً: إذا لم ينهض الرساليون في تقديم المشروع الحضاري والرؤية المستقبلية، فسينهض بها الالتقاطيون والمنهزمون والمبهورون ليقدموا رؤية ممسوخة لا تمت الى جذور هذه الأمة بصلة، وهو ما يؤدي الى وضع عراقيل جديد أمام الإبداع والتجديد الحقيقيين.

خامساً: يجب أن تتظافر الجهود لكشف زيف الحداثة التي تتزعمها اميركا اليوم باسم العولمة، ولإيقاظ الأمة على ما يواجهها من تحديات، ولرسم الخطط الكفيلة بمواجهة هذا التحدي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(١)ورقة مقدمة الى الدورة الرابعة لاجتماعات لجنة خبراء دراسة التحديات التي تواجه الامة الاسلامية في القرن الحادي والعشرين – طهران ١٢ – ١٥ يوليو (تموز) ٢٠٠٣.

(٢)موسوعة المورد، منير البعلبكي ،المجلد السابع، ص ٤٤، ط١، بيروت ١٩٨٨.

(٣) حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر د. كمال خيربك، دار الفكر بيروت، ط٢ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م، ص ٢٣.

(٤) انظر: مقدمة الشعر العربي، ادونيس، دار العودة، ط٤، بيروت ١٩٨٣، الفصل الخامس (آفاق المستقبل) ص ٩٩/ وما بعدها.

(٥) نفس المصدر، ص ١٠٠.

(٦) نفس المصدر، ص١٠١.

(٧) أزمة القصيدة العربية / مشروع تساؤل، الدكتور عبدالعزيز المقالح، دار الآداب، ط١، بيروت ١٩٨٥، ص١٥.

(٨) كتاب (مصارعة الفلاسفة) محمد بن عبدالكريم الشهرستاني، مطبوع في مقدمة كتاب (مصارع المصارع) لنصير الدين الطوسي، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ١٤٠٥هـ.

(٩) تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ ـ ١٩٧٠) د. محمد جابر الأنصاري، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٠م.

(١٠) انظر: مقدمة فكرية لحركة المشروطة، دكتر علي اكبر ولايتي، منشورات المستشارية الثقافية الايرانية ـ دمشق.

(١١) مجلة مجمع الفقه الاسلامي، دورة ١١/ العدد ١١/ ج٣/ ص٥٣٠.